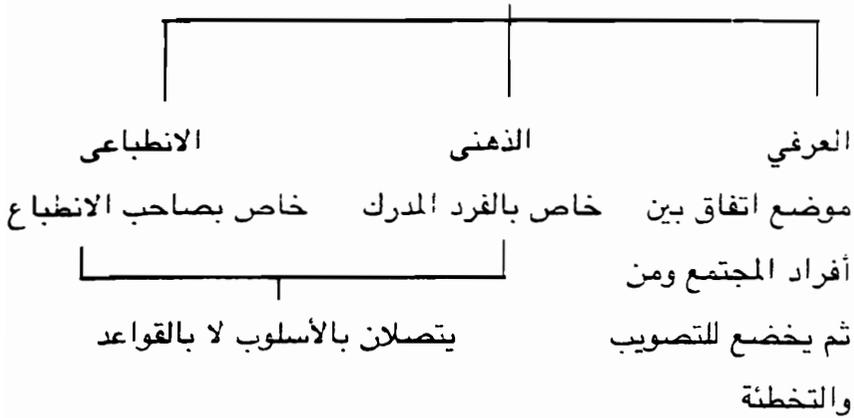


ظلال المعاني في القرآن الكريم

من المعروف أن المعنى لا يستدل عليه بالألفاظ فحسب ، وإنما تتعدد وسائل الدلالة عليه بحيث تشمل الأحداث والمواقف والانطباعات وما يكون من تجريدات ذهنية تحدث عند إدراك المعنى بأي وسيلة مما سبق . دعنا أولاً قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع نعرض رسماً إيضاحياً يقرب عن فهم هذا الكلام ، ويبين أنواع الإدراك وصلة كل منها بالمدركات :

المعنى



لعل هذا الرسم البياني أن يعين علي إدراك الفرق بين أنواع المعنى الثلاثة المذكورة إدراكاً عاماً يمهد للكلام عن كل نوع علي حدة . فالمعنى العرفي ما تدل عليه العناصر اللغوية من الأدوات والصيغ الصرفية والأسماء والأفعال ومفردات المعجم وصور الجمل المختلفة وكل ما يشمل عليه العرف اللغوي من العناصر . وتتضح ظلال المعنى للمعرب عند مزاوله إعراب الجملة ، لأن مصطلحات الإعراب قد لا ترد علي ذهن المعرب إلا بعد معرفته بهذه الظلال . ومن شأن تناول هذا النوع من المعنى أن يكون صالحاً للتعقيد لتوالي العناصر الدالة عليه ، إلا مفردات المعجم فهي علي رغم طابعها العرفي تخضع في معانيها للتصنيف دون التعقيد . وهذا التصنيف

مع ذلك يعين علي وضوح القواعد النحوية من خلال بناء الجمل من عناصر معجمية . ومما يشتمل عليه العرف من دلائل المعنى جملة العادات والتقاليد والمسالك العرفية في مجال الأعمال والأحداث والمواقف .

وإذا كان المعنى العرفي يعتمد في الإدراك علي القياس فإن المعنى الذهني يعتمد علي الاستنباط (الذي يلخصه لفظ إذن) والمعنى الانطباعي يعتمد علي الارتداد (رد الفعل) فلو أنك ألقىت التحية إلي شخص ما فلم تظهر منه بردها وأنت تعلم أنه سمعها فإن ذلك يدل في رأيك علي أنه غير مقبل علي الاستجابة لك . وإذا وقعت حادثة قتل في مكان ما وذهب رجال المباحث الجنائية إلي موقع الحادثة فإن أول ما يطالبون به أن تبقي الأوضاع المادية علي حالها التي وجدت عليها ، ليتمكنوا من الفهم الدقيق للظروف التي صاحبت الحادثة . وسوف يكون نجاحهم في كشف غموض ما حدث مرهونا بإدراكهم الذهني للعلاقات بين ما يصادفهم من الأدلة وبين مدلولاتها الذهنية ، وهلم جرا .

وأما المعنى الانطباعي فقوامه ما يثور في نفس من انفعال بما يصادف المرء مما يسبب له الإحساس بالرضا أو يبعث في نفسه الضيق . ويبدأ ذلك من ردة فعله لحالة الطقس ويمتد إلي سماع الموسيقى أو الاستعانة أو المشاهد المسرحية أو الإحساس بالسخونة الشديدة عند للمس المفاجيء أو نحو ذلك . ومن جنس ما يثير هذا المعنى ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (البقرة ٢٧٣) . والملاحظ أن المعنى الانطباعي ليس من شأنه أن يتوقف علي عرف أو علي إدراك ذهني وإنما يتوقف علي ردة الفعل المباشرة عند الإدراك الحسي في مجمل صورته .

ويستدل علي المعنى العرفي في عمومه بواسطة سياقين : سياق النص وسياق الموقف . فأما المقصود بسياق النص فهو الجانب القولي بما فيه من عناصر التركيب وما تنتظم به من تصنيف وتأليف وعلاقات وقرائن . وأما

المقصود بسياق الموقف فهو ما يصاحب المنطوق من أوضاع تداولية توصف أحيانا بأنها عناصر الموقف ، وهي عظيمة الأهمية لفهم ما يقال . ويسمونها المفسرون : «أسباب النزول» ، كما يسميها شراح النصوص : «المقام» . وقد تجد القصيدة الواضحة الصياغة لا يتحقق فهمها إلا بعد التقديم له بذكر الظروف التي دعت لنظمها . وهذا هو سياق الموقف . ومن عناصر الموقف عنشيء النص ومن يستقبله (فردا كان أو جماعة) وظروف قوله وما تركه من أثر في النفوس وما إذا كان الأداء لغوياً فقط أو كان مصحوباً بجانب حركي ... إلخ .

هذه جولة القول في المعنى باختصار . ونريد الآن أن نلقي الضوء علي العلاقة بين المعنى وظل المعنى . لأن ظل المعنى لا يمكن فهمه إلا بعد إدراك المعنى الذي هو ظله . ولنا من هذه اللحظة أن نتناول مواقف عدد من الدراسات المختلفة من حيث النظرة إلي هذه الضلال فنبداً بمستوي النص ثم بالنحو ثم البلاغة ثم أصول الفقه ثم الدراسات اللغوية الحديثة . فكل من هذه الدراسات منهج تناول مشكلة المعنى .

أولاً : من ضلال المعنى علي المستوي النصي :

يمكن تحت هذا العنوان أن نورد الأمثلة التالية :

١ - السؤال الوارد علي دعوي سابقة : قال تعالى :

* «فَيَوْمَذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ» (الرحمن ٢٩) .

وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (القصص ٧٨) .

السؤال هو : كيف ذلك واليوم يوم الحساب ؟

والجواب الذي يسعي إليه السؤال : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام» (الرحمن ٤١) .

* وقال تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو

كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (التوبة ١١٣) .

والسؤال الوارد هو : كيف ذلك وقد استغفر إبراهيم لأبيه ؟ إذ قال

لربه : «وَأَغْفِرُ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (الشعراء ٨٦) .

والجواب : «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا بِهَا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (التوبة ١١٤) . والمقصود بالموعدة قول إبراهيم : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » (مريم ٤٧) .

٢ - دلالة الاستفهام الإنكاري :

يدل الاستفهام الإنكاري علي ما يلي :

* إذا كان الاستفهام الإنكاري مبدوءا بحرف النفي فإن ظل المعني هو الإثبات أو الأمر .

الشاهد علي معني الإثبات قوله تعالي : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» (الضحى ٦) . أي لقد وجدك يتيما .

والشاهد علي معني الأمر قوله تعالي : «أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» (التوبة ١٣) . أي قاتلوهم .

* أما إذا كان الاستفهام الإنكاري بغير حرف النفي فإن ظل المعني هو النفي أو النهي .

الشاهد علي معني النفي قوله تعالي : «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا» (الأنعام ١١٤) . أي لست أبتغي غيره .

* وقوله جل شأنه : «أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» (الحجرات ١٢) أي لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . ولما كان ظل المعني علي نية النفي صالحا أن يكون معجميا كما يكون نحويا جاز أن يكون التلخيص المعجمي للتركيب النحوي السابق هو لفظ «عفتموه» ومن ثم عطف عليه لفظ «فكرهتموه» . ومن صور النفي المعجمي في القرآن الكريم قوله سبحانه : «وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنْمَ نُورُهُ» (التوبة ٣٢) أي لا يتقبل الله إلا أن يتم نوره .

أما الشاهد علي إرادة النهي فقوله تعالي : «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (يونس ٩٩) . أي لا تكرههم علي الإيمان ، لأنه « لا إكراه في

الدين» (البقرة ٢٥٦) .

ويمكن صرف هذا الإنكار إلي معني النفي ليكون ظل المعني : ليس من شأنك أن تكره الناس .

٣ - دلالة الحذف :

من المعروف أنه لا حذف إلا بدليل ، وأن هذا الدليل إذا تحقق أصبح الحذف بذاته دالا علي ظل للمعني يدركه من إدراك الدليل علي الحذف . ومن شواهد ذلك قوله تعالي :

* «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ» (الحاقة ١ - ٣) .

لم ير المفسرون في هذا النص حذفاً ، ومن ثم فهموا منه الاستفهام بواسطة «ما» الاستفهامية . وفي ذلك مفارقة هي اعتقاد اتجاه السؤال من الله لرسوله وليس العكس . أما ظل المعني المقصود فهو التعجب الذي يدل علي حذف «أفعل» بعد «ما» في «ما الحاقاة» بدليل ذكر «أفعل» في الجملة التعجبية التي بعد ذلك مباشرة (أي وما أدراك ما الحاقاة) . فهذه الجملة الأخيرة معناها : وما أعظم درايتك بالحاقاة ، لأنك علي علم بأشراطها وما يحدث في يوم الدين ، وقد وضح الوحي لك هذا الأمر كما تدل الأحاديث علي ذلك . أما قضية حذف «أفعل» فلها شواهد أخري في التراث العربي منها حديث أم زرع ، إذ يرد فيه قولها في مدح زوجها : «زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ! » أي وما أحبه إلي ! .

* « قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » (هود ٨٠) .

الجواب محذوف يدل عليه سياق الموقف ، والتقدير : لاستطعت أن أورد كيدكم إلي نحوركم . وذلك هو ظل المعني .

* «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ...» (القصص ٢٣ - ٢٤) .

* «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ» (النجم ٤٣ - ٤٨) .

إذا كان في الفعل دلالة بلفظه علي المفعول به حسن حذف المفعول به دفعا للإطناب ، فلو نظرنا إلي الآيتين السابقتين من سورة القصص وما فيهما من فعلي السقي والإصدار وجدنا أن المفعول به لكل منهما لا بد أن يكون من نوع قطعان الماشية ومن الغنم بخاصه . ومن ثم اكتفي النص بذكر الفعلين ولم يذكر الماشية وقد وضعنا في مكانها هذه العلامة (*).

* قال تعالى : «وَلَا عَلَى الدِّينِ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا» (التوبة ٩٢) . هنا فاء محذوفة تصلح للتقدير في أحد موضعين . فإما أن تقدر مع «قلت» لتعطف الفعل علي «أتوك» فيكون الفعل «تولوا» وما بعده جوابا لإذا ، وإما أن تقدر مع «تولوا» فيكون هذا الفعل معطوفاً علي «قلت» . وعلي أي من التقديرين يكون التقدير الآخر ظلًا من ظلال المعني .

قد يكون التركيب إستفهاميا وظل المعني تعجباً :

وقد سبقت الإشارة إلي هذا الظل في مطلع سورة الحاقة من خلال الكلام عن الحذف . ويمكن هنا أن نضيف ما يلي :

قال تعالى : «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» (الإنسان - ١) .

من الواضح أن هذا التركيب لا يدل بصورته علي الاستفهام . فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عباده عن أمر هو أعلم به . أما المقصود هنا فهو التعجب من طول ما مر من الدهر منذ بدء الخليقة قبل أن يخلق الإنسان . ولعل استعمال الاستفهام لإفادة التعجب ظاهرة لغوية ذات إنتشار في الأسلوب العربي وشائعة في لغات أخرى . أما في الأسلوب العربي فاقراً قوله تعالى :

«هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون» (المطففين ٣٦) .

«قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (الإسراء ٩٣) .

«ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» (الرعد ٣٢) .

وأما في غير العربية فقد يقول الإنجليزي الذي ضرب شخصاً آخر

«and did I beat him» .

وهو يقصد «ما أشد ما ضربته!

ونحن نقول في الأسلوب العامي: قد إيه يضايقني الحر!! أي ما أشد

ما يضايقني !

٤ - اختيار نوع اللفظ المفرد للدلالة علي ظل من المعني :

قال تعالى : « وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ

هَيْتَ لَكَ » (يوسف ٢٣) .

«وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ» (يوسف ٢٥) .

في هاتين الآيتين إشارة إلي ثلاثة أشخاص : يوسف عليه السلام ،

وإمرأة العزيز ، والعزيز نفسه . وأشد الثلاثة ضعفاً وأولاهم بالحرج يوسف ،

لأنه كان في حكم الرقيق وكان العزيز في مقام سيده ، كما كانت امرأة

العزيز في حكم سيده أيضاً . وجاءت العبارة القرآنية لتتال من قدر امرأة

العزيز وتحد من احترام القاريء لها . فهي في الآية الأولى مجرد صاحبة

البيت الذي يأوي إليه يوسف وليست سيده ليوسف نفسه ، وفي الآية

الثانية تخضع لسلطان سيد لها من حقه أن يكون قواما عليها دون أن يشير

النص إلي العلاقة الزوجية بينهما .

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل»

(يونس ٩٠) .

كان فرعون يري لنفسه صفة الألوهية ، وقد أصر علي هذا الرأي

حتى أدركه الغرق . عندئذ أدرك أن هذا الزعم غير حقيقي ، وأن الإله الذي

دعا إليه موسي استطاع أن يورده مورد التهلكة . وما دام هذا الإله قويا

إلي هذا الحد فهو جدير أن يعترف له بالألوهية . ولكنه عندما أراد أن يعبر

عن ذلك لم يجد من المفردات ما يدل علي ألوهية هذا الإله إلا أنه الذي آمنت

به بنو إسرائيل . أما ما أشار به موسى إلى الله جل جلاله فلم يرد فرعون أن يذكره بما سمعه من صفاته سبحانه . بل سماه في مناسبة أخرى : «إله موسى» (القصص ٢٨) . وهذا يجعل للمعنى ظلاً خاصاً .

ثانياً : ظل المعنى في ضوء العلاقة النحوية والقرينية :

للمعنى عند النحاة أنواع منها :

١ - معنى عام حقه أن يؤدي بالحرف ، يجعلونه سبباً من أسباب البناء ، ومنه معاني الضمائر . وهذه المعاني هي التكلم والخطاب والغيبة والإنراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث الخ . وهذا المعنى من قبيل «المعنى الوظيفي» .

٢ - المعنى الصرفي للصفة المجردة بصرف النظر عن أمثلتها ، كدلالة «استفعل» على الطلب أو الصيرورة أو اعتقاد الشيء على صفة ما أو المطاوعة نحو أقمته فاستقام . وهذا وظيفي كذلك .

٣ - المعنى المفرد ، وهو المعنى المعجمي الذي ينسب إلى مفردات المعجم ، والذي تنسب إليه فكرة المناسبة المعجمية وهي فرع من فروع قرينة التضام . وهي التي يقصدها البلاغيون بقولهم : «إسناد الفعل إلى من هو له» . وسيأتي أن الترخص في هذا المعنى خطوة ضرورية إلى استعمال المجاز .

٤ - معنى الجملة أو أسلوب تركيبها النحوي الذي ينسب إليها بحسب أصل الوضع من خبر أو إنشاء ونحو ذلك . وهذا المعنى هو الذي تكون له ظلال من قبيل ما مر بنا منها تحت قسم «أولاً» ، وقد تعرض له حالات من اللبس لنقص في القرائن .

ومن المعروف عند النحاة أن الخبر عين المبتدأ في المعنى وأن المضاف لا يضاف إلى ما في معناه ، وأن الحال تشرح معنى الملابس ، وأن الجملتين يمكن أن تعبر إحداهما عن توكيد الأخرى أو تفسيرها أو تعليقها أو الاستثناء منها أو تفصيل إجمالها كما رأينا منذ قليل أن مبني الجملة قد يكون على صورة الخبر ولكن معناه هو الشرط كما في قوله تعالى : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْمِيَ الرُّضَاعَةَ» (البقرة ٢٣٣)

أي (من أراد أن يتم الرضاعة فعلي الولادات أن يرضعن أولادهن) . أو يكون مبناهما علي صورة النهي ومعناها الأمر كما في قوله تعالي : «ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون» (البقرة ١٢٢) أي تمسكوا بالرسلام حتي الموت . وهذا هو ظل المعني الأصلي الذي ينسب إلي أصل الوضع . وأود الآن أن أعرض طائفة من المعاني المنسوبة إلي الجملة بأصل الوضع وما

	المعني الأصلي	ظلال المعني
الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم (البقرة ٢٧٤).	خبر	شرط
وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ (البقرة ٢٢٨) .	خبر	أمر
فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا (البقرة ١٠).	خبر	دعاء
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (هود ٧٨).	خبر	عرض
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا (النور ٥١).	خبر	إلتزام
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (ص ٥)	خبر	تعجب
قَالُوا لَا ضَيْرَ (الشعراء ٥٠)	خبر	تعميم
وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ (الرعدة).	شرط	تعجب
وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ (غافر ٢٨) .	شرط	سبر وتقسيم
وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ (غافر ٢٨) .		
لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ! (الزمر ٥٨)	شرط	تمن
إِنَّا هَدَيْتَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان ٣) .	شرط	تسوية

نداء	تعجب	قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ (يوسف ١٩).
نداء	ندبة	يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ! (يوسف ٨٤).
نداء	اختصاص	ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِبُونَ (الواقعة ٥١).
		لَا تَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ (الواقعة ٥٢).
نداء	تمن	يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ (القصص ٧٩).

يكون لكل منها من ظلال ، وذلك كما يلي :

وهكذا تتعدد الظلال للمعاني الأصلية الأخرى وهي الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتحضيض والرجاء والتمني والتعجب فنري لكل واحد من هذه المعاني الأصلية عددا من الظلال علي النحو الذي رأيناه . ومن شاء أن يطلع علي ذلك فعليه أن يلتمسه في كتاب : «البيان في روائع القرآن» لصاحب هذا البحث .

ثالثا : ظلال المعني في البلاغة :

سبق لي أن شاركت في حلقة دراسية أقامها النادي الثقافي بجدة بالمملكة العربية السعودية في المدة بين ١٩ - ٢٤ نوفمبر ١٩٨٨ بعنوان : «قراءة جديدة لتراثنا النقدي» وكان عنوان ما تقدمت به من بحث هو : «موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية» وكان المقصود بما وراء الصياغة اللغوية مصطلحات شاعت في نقد السلف مثل : الجرس وحسن التأليف والسلاسة والجزالة والديباجة والسبك والماء والرونق مما يمكن نسبته إلي ما سبقت الإشارة إليه من المعني الانطباعي . ولم يكن أي واحد من هذه المفاهيم يخضع في منهجهم لتناول منظم من خلال فهم نظري . حتي السبك الذي يشار إليه في زماننا في معرض دراسة النص بالمصطلح cohesion ويدرس درسا منظما في نطاق التضام والترتبة والربط لم يكن في فهمهم أكثر من إحساس بوحدة النص وانطباع بتماسكه . هذا ما كان في تلك الندوة .

أما بالنسبة لظلال المعني التي يمكن الكشف عنها عند النظرة البلاغية فإنها تتطلب أولاً أن نفرق بين علوم المعاني والبيان والبديع لما بين هذه العلوم من اختلاف في النظرة إلي موضوع الدراسة . فالمتأمل في موضوع علم المعاني يجده عظيم الصلة بالدراسات النحوية ، لأنه يفرق بين صور الإسناد الخبري وما يستفاد من كل منها وما يلزم لها ، وكذلك يفرق بين أضرب الخبر من حيث الإثبات والتأكيد ، ثم خروج الكلام علي خلاف الظاهر . ويلحق النفي في هذه الأمور بالإثبات فما قيل في موقف علم المعاني من الإثبات يقال أيضاً في حالة النفي . ومن موضوعات علم المعاني التفريق بين الحقيقة العقلية والمجاز العقلي بواسطة القول بما إذا كان اللفظ المسند قد أسند إلي من هو له أو إلي غير من هو له . وذلك عرض آخر لفكرة المناسبة المعجمية والمفارقة المعجمية والمعروف أن القول في شأنهما فرع علي الكلام في قرينة التضام في النحو ، وأن المفارقة المعجمية هي منشأ المجاز ، وشرطه وجود العلاقة والقرينة . ولقد التزم علم المعاني بالكلام في موضوعات تنتمي إلي ثلاث من قرائن النحو يتحمل كل موضوع منها ظلاً من ظلال المعني علي الوجه التالي :

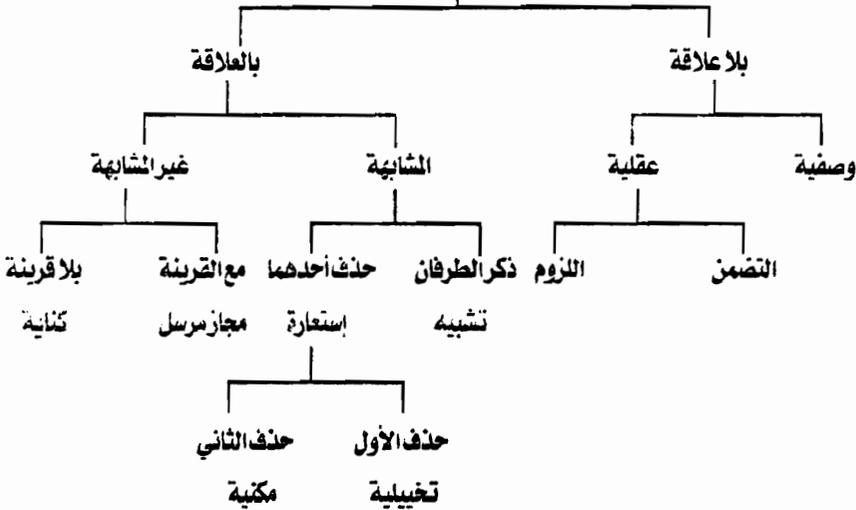
١ - قرينة التضام : طرفا الإسناد - المناسبة والمفارقة - الحذف الإضافة - الوصف - الإبدال - العطف - التخصيص - التعميم - المعاقبة .

٢ - قرينة الرتبة : التقديم - التوسط - التأخير .

٣ - قرينة الربط : الإضمار - العلمية - الموصولية - الإشارة - العهد - الجنس - التنكير - الخروج علي خلاف مقتضي الظاهر . وكل واحد من هذه المواضيع يكمن في داخله ظل المعني .

أما علم البيان فيمكن تخلص موضوعه بأنه يدور حول استعمال الألفاظ المفردة علي النحو التالي :

أسلوب البيان



هنا نظفر من علم البيان بظلال للمعني منها وجه الشبه ولازم المعني والتضمن والتخييل والعلاقة والقرينة والمجاز والإستعارة والأصالة والتبعية والتجريد والترشيح . ومن المفيد أن نشرح جانباً من هذه الجوانب وليكن هذا الجانب هو الإستعارة . يقول تعريف الاستعارة إنها : «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلي معني آخر لعلاقة بينهما وقرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي » . فلو أخذنا عناصر هذا التعريف بالشرح لإنتهينا إلي ما يلي :

يمكن أن نفترض أن شاهد الاستعارة المذكورة هو : «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » . عندئذ يكون الوضع علي النحو التالي :

المعني الأصلي = الشراء ، المعني الآخر = الاستبدال

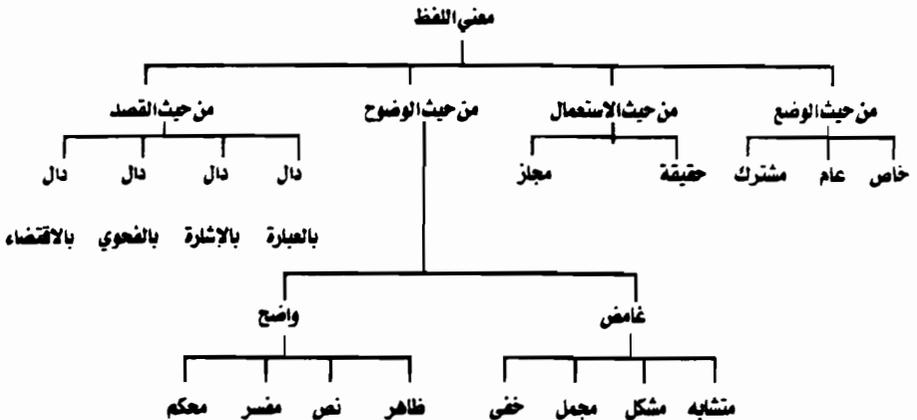
العلاقة = وجه الشبه ، القرينة = المفارقة المعجمية

شبه الشراء بمطلق الاستبدال ثم حذف المشبه به (وهو الاستبدال) وأقيم المشبه مقامه بما بينها من وجه الشبه (أي علاقة المشابهة) فلو حظ ما بين الشراء من جهة وبين الضلالة (التي هي ليست سلعة فتشترى) والهدى (الذي ليس ثمننا فيدفع) من جهة أخرى (وتلك هي المفارقة المعجمية أي

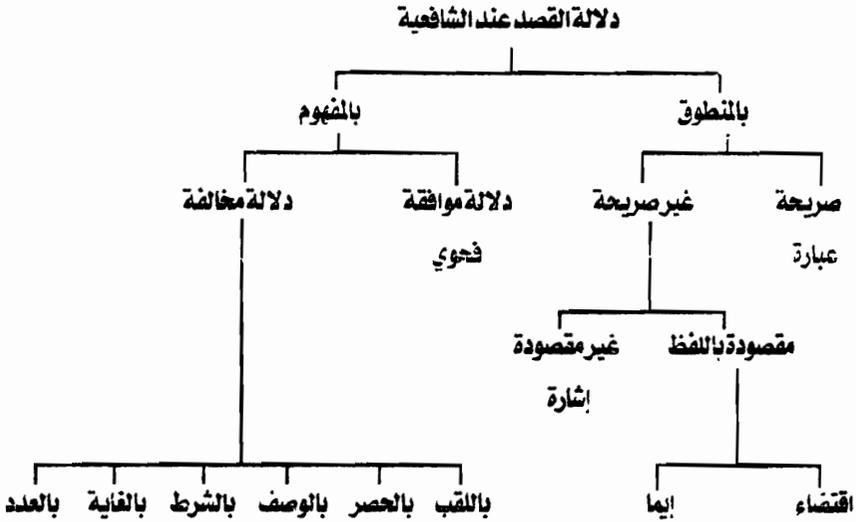
القرينة التي تحول دون إرادة الشراء) . ولما لم يكن الشراء صالحاً في هذا الشاهد للقصد أصبح الاستبدال هو المقصود . ولما لم يكن الاستبدال مذكوراً كان ظلاً للمعنى . وليس الأمر كذلك في الكناية لأن القصد يمكن أن يتجه إلى كل من المعنيين في الوقت نفسه ، فيكون المعنى البعيد (وهو لازم المعنى) ظلاً للمعنى القريب ، ومن ثم تنقي الحاجة إلى القرينة اللفظية وإن دعت الحاجة حيناً إلى قرينة حالية ، فالإنسان لا يحس الحرج إذا وصفه أحد بأنه «يأكل الطعام» ولا بأنه «يمشي في السواق» . ولكن يحرجه الوصف بالتغوط والمساومة . كما في قوله تعالى : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » (الفرقان ٧) .

أما علم البديع الذي يدرس تحسين الكلام بعد مطابقته لمقتضى الحال (أي لسياق الموقف) ، وبعد أن يتسم بوضوح الدلالة ، فتنقسم المحسنات فيه إلى معنوية ولفظية . فأما المحسنات المعنوية فيغلب فيها طابع ظلال المعاني ، وأشهرها المطابقة والتضاد والمقابلة والأرصاد والتوهم والتعليل الخ . وأما المحسنات اللفظية فهي ظواهر شكلية أسلوبية لا تحكمها قاعدة ، وقل أن تنتمي إلي ما نحن بصدد الكلام في شأنه من ظلال المعاني .

هنا نصل إلى موقف علماء أصول الفقه من الأحناف من ظلال المعاني . وسنجد أن موقف هؤلاء من المعاني لا يتجه إلى الجملة بقدر ما يتجه إلى اللفظ المفرد . وأول ما يصادفنا من نظرهم إلى معنى اللفظ ما يلي :



وكأن الشافعية وافقوا علي المعاني الثلاثة الأولى مما رآه الأحناف ،
وخالفوا في حالة المعني من حيث القصد كما يلي :



وهكذا نجد المفاهيم المشتركة بين الحنفية والشافعية في تقسيم فكرة القصد تتفق إلي حد كبير في فهم المقصود بألفاظ كل ما تفرع عن المنطوق غير الصريح (أي الاقتضاء والإيماء والإشارة) ثم المقصود بالفحوي ومفهوم المخالفة . وكل ذلك من ظلال المعاني .

وفيما يلي طائفة من الشواهد القرآنية علي هذه الظلال :

العبارة : «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (البقرة ٢٥٥) . المعني مرتبط بصريح اللفظ .

الاقتضاء : «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَاتْتَمَّى الْمَاءُ عَلَيَّ أَمْرٌ قَدْ» (القمر ١٢) .

القدر والتفجير لابد أن يؤديا إلي إتقاء الماء .

الإيماء : «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (القصص ٤٦) . أنت إذن تتلقي الخبر عن الوحي .

الإشارة : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»
(الفرقان ٧) الإشارة بأكل الطعام إلي إغراز الفضلات وبالمشي في الأسواق
إلي المساومات .

الفحوي : «ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (آل عمران ١٠٢) . أي
تمسكوا بالإسلام حتي الموت .

مفهوم المخالفة : «يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا» (هود ٦٢) أي
أنتك لم تعد الآن مرجوا .

وأخيراً نصل إلي طريقة السيمولوجيا (وهي فرع من الدراسات
اللغوية الحديثة لدراسة العلامات ودلالاتها) لنلقي نظرة علي أحد الألفاظ
وننظر في ما يتفرع عنه من عناصر المعني (أي السيمات كما يسمونها) .
فهذه العناصر الأولية تنقسم إلي طائفتين إحداهما لاغني عنها لتحقيق
المطابقة الدلالية بين اللفظ ومدلوله والأخري يمكن للمطابقة أن تتحقق
بدونها . فلو أخذنا لفظ «أم» مثلاً لنري الفرق بين الطائفتين فسوف نجد أن
الأمومة لا تتحقق إلا بعناصر ضرورية هي :

الأنوثة - البلوغ - المخالطة الجنسية - الحمل - الولادة - فارق
السن بين الأم والمولود .

ولكن هناك عناصر أخري يمكن أن تتحقق الأمومة بدونها وهي :

الإرضاع - العطف - الزواج - المحبة - العناية ... الخ .

ومن العناصر الضرورية التي ذكرت أولاً ثلاثة لافضل للأم فيها لأنها
من عطاء الطبيعة وهي : (الأنوثة والبلوغ وفارق السن) ، أما الثلاثة الأخرى
من المجموعة ذاتها وهي . (المخالطة الجنسية والحمل والولادة) فهي تتم
بحسب قرار وبجهد عضوي لايمكن أن تتم الأمومة بدونه .

ولكن هذه العناصر جميعاً ما كان منها عضوياً وما لم يكن تعد وجوه
شبه بالنسبة لمجاز الأم . فإذا قلنا مثلاً : «مصر أمنا» فوجه الشبه (أي
ظل المعني) أنها تغذيها بخيراتها . وإذا قلنا : «الخمير أم الكباير» فوجه

الشبه أنها سبب في وجود الكباثر أو حدوثها ، وهلم جرا .

ويروي رواية الحديث النبوي أن سائلا سأل النبي صلي الله عليه

وسلم: «من أحق الناس بحسن صحابتي؟» فأجاب عليه الصلاة والسلام :

«أمك» . وكأنه يقول : فهي شريكة في جهد تكوينك . قال : ثم من؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول : فهي قد حملتك كرها . قال : ثم من ؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول :فهي وضعتك كرها . قال ثم من ؟ قال :

«أبوك» . وكأنه يقول : لأنه شارك في الجهد الأول فقط .

وهكذا يبدو للمتأمل كما لو كان ذكر الأم أولا جاء في مقابل ما سبقت

الإشارة إليه من المخالطة الجنسية وجاء ذكرها ثانيا في مقابل الحمل ثم

جاء ثالثا في مقابل الولادة أما الأب فلم يذكر إلا في مقابل الجنس فقط ،

وجاء ذكره لأنه مصدر الحيوانات المنوية وما يشكل جنس المولود ذكرا كان

أم أنثى ، وأما الأم فهي مستقر ومستودع .

ويتضح للمتأمل أيضاً أن قضية ظل المعني ليست حكرا علي منهج

النقد الأدبي ولاعلي علم النفس اللغوي وإنما ترتبط نوع ارتباط بالدراسة

المنظمة للغة ، وأن القول فيها يمكن أن يجد من البسط أكثر مما كان له في

هذه العجالة .

وأخيراً أحب أن أشير إلي لفظ «سِيَمَاهُمْ» في قوله تعالى : «تَعْرِفُهُمْ

بِسِيَمَاهُمْ»(البقرة ٢٧٣) وقوله : «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَمَاهُمْ» (الرحمن ٤١) ثم

إلي ما سمي به علم السيمولوجيا في العصر الحديث وهو من إنتاج البحث

العلمي في الغرب .